# ابن خلدون وابن عربي كنماذج لدراسة المجتمع العربي الإسلامي

**د. عبد الكريم مزعل**

**"التاريخية التأويلية"**

**مقدمة:**

تأتي هذه الدراسة في سياق البحث عن إطار نظري/منهجي لدراسة المجتمعات العربية الإسلامية، ويتركز هذا الإطار على تصورات كل من ابن خلدون وابن عربـي كمـصدرين عربيين إسلاميين أصيلين، في محاولة لتأصيل نموذج نظري يلاءم بين الفهم المادي للتـاريخ والاجتماع عند ابن خلدون والرؤية الفلسفية التأويلية عند ابن عربي التي تتيح فهما خلاقا للدين يرتكز على المضمون ويتيح مجالا هائلا للاجتهاد والتعددية في إطار الوحدة الروحية.

**أهمية الدراسة:** تنبع أهمية هذه الدراسة من ضرورة البحث عن مخرج للأزمـة التـي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية منذ قرون نتيجة تعطيل البحث الخلاق في تراث الفكـر العربي الإسلامي من جهة وهيمنة الفكر الغربي على المجتمعات العربية الإسلامية بنمـاذج نظرية وفكرية استعصى قبولها وعجزت عن توفير حلول ملائمة لهذه المجتمعات.

**أهداف الدراسة:** تهدف الدراسة إلى لفت النظر لإمكانية بعث الروح في الفكر العربـي الإسلامي الخلاق، ولإمكانية تطوير إطاراً نظرياً ومنهجياً عربياً إسلامياً أصيلاً وملائم لروح وطبيعة هذه المجتمعات، ونابع منها وفاعلاً من أجلها.

**تساؤلات للدراسة:** التساؤل الرئيسي في هذه الدراسة هو هل من الممكن تطوير نمـوذج نظري عربي إسلامي ينبع من التاريخ و التراث الإسلامي وقادر على المساهمة فـي إحيـاء الفكر والمجتمع العربي الإسلامي؟؟ وما هي مصادر هذا النموذج؟! و كيف يمكن أن يـؤدي إلى إثراء البحث الفكري وفي التأسيس لمجتمعات عربية إسلامية فاعله وقادرة على النهوض أمام التحديات التي تواجهها في مرحلة ما بعد العولمة.

**الفرضيات:** تفترض الدراسة بان هناك ارث فكري تـاريخي ينـسجم مـع روح الـدين الإسلامي من الممكن أن يكون منطلق لصياغة مشروع عربي إسلامي على المستوى الفكري و الاجتماعي، وترى بان ابن خلدون وابن عربي يشكلان جزءاً هاماً من هـذا الإرث، الـذي يمكن أن يؤسس لمجتمع عربي إسلامي قوي يمهد لنشوء مجتمعات تحتـرم العقـل والفكـر والحرية وتوظف طاقات أفرادها، في إطار من التعددية والتنوع وتعتبرهـا مـصدراً للقـوة الاجتماعية.

**منهجية الدراسة**: تقوم هذه الدراسة على مراجعة نقدية تحليلية للإسهامات الأساسية لكل من ابن خلدون في التاريخ والاجتماع كما جاءت في المقدمة. وفي فلسفة ابـن عربـي فـي التأويل في الفتوحات المكية، ومساهمات بعض الباحثين في ارثهما الفكري.

**نتائج الدراسة:**

لقد حاولت الدراسة انتقاء المقولات المهمة عند ابن خلدون **كمفهومه للتاريخ والمجتمع، التغير الاجتماعي،عناصر الفعل الاجتماعي (العائلة والدين والنظام الـسياسي)** والمقـولات المهمة عند ابن عربي **كنظرية (البرزخ أو الوسيط، الإنسان "العارف الكامل" ،التأويل، العقل** ومحاولة عرضها بطريقة منهجية، تحولها من رؤى مبعثرة إلـى أطروحـة أكثـر تماسـكاً وانسجاماً لدى كل منهما، ثم سعت الدراسة إلى الكشف عن أهم نقاط التقاطع بينهما ومحاولـة ربط الخيوط التي تجمع بين أطروحتيهما في أطروحة واحدة، تربط بين الفردي والجمـاعي، بين المادي التاريخي والروحي، بين الاجتماعي والديني، مظهرة الفاعل على مستوى الفـرد والجماعة، ومضمون الفعل في صيغة عقد اجتماعي مؤسس على التاريخية بالمفهوم الخلدوني والتأويلية بالمفهوم الابن عربي، **وقد توصلت إلى صياغة الخطوط العامة لنظرية "التاريخيـة التأويلية" التي تؤسس على:**

**نسبية الحقيقة:** إن الحقيقة الاجتماعية نسبية عند ابن خلدون فيما الحقيقة الدينية نـسبية أيضاً عند ابن عربي، فابن خلدون يعتبر الظاهرة الاجتماعية تاريخية بمعني نشوءها وتطورها وتغيرها من مجتمع لأخر ومن وقت لأخر وهي ترتكز على تفاعل الناس حول مصلحة تامين البقاء والاحتياجات "نحل العيش" وبالتالي لا نستطيع فهم الحقيقة الاجتماعية إلا بتحليل عناصر التفاعل الاجتماعي في لحظة تاريخه مرتبطة بنشاطه المادي لتحقيق مصالحه. أما ابن عربـي فيرى أن الحقيقة الدينية بمكوناتها المختلفة هي نسبية من حيث أنها انعكاس للذات المدركة لها والطريقة التي تدركها بواسطتها ومن هنا لا احد بإمكانه الادعاء بـامتلاك هـذه الحقيقـة أو

احتكارها وإلغاء رؤية من يختلف معه فيها، ومن هنا ولان الحقيقة هي ذاتية وبمـا أن الـدين وجد لمصلحة الإنسان، فان من واجب الإنسان المسلم التأويل المستمر للدين بما يتلاءم وتحقيق مصالح الإنسان في المجتمع.

**الاجتماع المتغير وضرورة التأويل:**

أما حدود التأويل الدينية فهي الإيمان بالله. فالتأويل عند ابن عربي لا ينبغي أن يتعارض مع 1- الإيمان المطلق لله 2- ومقاصده ينبغي أن تتركز على **تحقيق العمل الصالح** والـذي قد يكون له بعدين الأول تجاه الخالق بالشكر والتقدير "العبادات" لما منه على الإنـسان وهـي مسالة ذاتية في طريقة التعبير عنها وبالتالي تعاقد بين الفرد وربه أساسـا، والثـاني باتجـاه المجتمع والذي ينبغي تحديد مفهومه ومراميه فما المقصود بالعمل الـصالح وكيـف نعرفـه ونحوله إلى نظام قيمي ومعياري لسلوك المسلم المؤمن في المجتمع ويحاسب عليه. ولكن من هو المخول بالتأويل عند ابن عربي؟ أليس الإنسان الكامل، وإذا كان التأويل علـى مـستوى الفرد له علاقة بالفرد وخالقه وكيفية صياغة هذه العلاقة، فمن هـو المخـول للتأويـل علـى المستوى الاجتماعي لإيجاد علاقات اجتماعية تعبر عن مصالح أفراد المجتمع الإسلامي، مـن هو المخول لتحديد العمل الصالح؟ من الواضح لابن عربي أنهم الراسخون في العلـم، وهـم بالمعنى الحاضر علماء ومفكري الأمة (فلاسـفتهم ومفكـريهم وعلمـاء الاجتمـاع والـدين والاقتصاد والنفس والطب والفيزياء ....) هل يمكن تشكيل مجلس خبراء على مستويات مـا للقيام بالمشروع التأويلي العربي؟ وما غاية هذا العمل الصالح أليس تحقيق "الحرية، العدالـة، الكرامة والسعادة " للإنسان المسلم؟ كيف نحوله إلى برامج تربوية لصياغة مـشروع المـسلم الكامل.

ولكي يلتقي تأويل ابن عربي مع ضرورة الاجتماع عند ابن خلدون ينبغـي أن نفهـم إن أساس الاجتماع لدية هو التعاون والتضامن بين الإفراد على تحقيق هذا العمل الصالح الـذي يمكن تحويله إلى رزمة قيمية ومعايير وبرامج عمل تسعى لتحقيق "الحرية، العدالة، السعادة". للإنسان في المجتمع العربي المسلم. لان المجتمع العربي الإسلامي ينبغي إن يتسع لكل الذين امنوا على اختلاف إيمانهم بالله بما في ذلك أصحاب الديانات الأخرى، أما الـذين لا يؤمنـوا فينبغي استيعابهم في إطار قبولهم بالالتزام بالعمل الصالح الدنيوي.

**التعاقد الاجتماعي**

يحمل الإنسان حسب ابن عربي المشروع الديني كفرد وكما يدركه في لحظـة تاريخيـة ولكن القليل من يصل مرحلة العارف الكامل" فالحقيقة واحدة وان تعددت سبل السالكين، ممـا يؤدي إلى الاختلاف بين الناس في هذا الموضوع وبالتالي فان تعاقد الإنسان مـع ربـه هـو مسالة يحددها الفرد أساسا كما يدركها في داخله أو في نواياه، فهي اقرب إلى أن تكون علاقة خاصة" له حرية تحديدها "فالعلاقة إذن في هذه الحالة تقام على الحرية القائمة علـى القناعـة والرضا وليس الخوف والإكراه "لا إكراه في الدين" ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفـر" إذن فليس بوسع الآخرين التحكم بها أو التأكد من حقيقتها، ولذلك لا يجب أن تكون محـل تـدخل الآخرين أو بمعنى أخر لا ينبغي أن يقام التعاقد على هذا الاتجاه، لان هـذا بمثابـة تفـويض للبعض أن يكونوا ممثلين لله أو مندوبين عنه في إلزام الناس على صياغة علاقة لها أبعـاد قابلة للفحص والقياس ليتأكد هؤلاء المفوضين أنهم يطبقون الدين.

فيما تحمل العائلة كأهم مؤسسة تربوية المشروع الاجتماعي "العمل الصالح" بعد تحديـد قيمه ومعاييره واليات تحقيق ذلك، لنقلها إلى أفرادها ومن ثم إلى تطبيقـه كنظـام اجتمـاعي "سياسي قانوني" مرتكز إليها على مختلف المستويات والدوائر الاجتماعية.

**ومن هنا ينبغي مراجعة تاريخية تأويلية للعقد الاجتماعي العربي الإسلامي، حيـث** أن القبيلة لم تنصهر في الإسلام بل استطاعت أن تجعل من الإسلام مشروعاً تأويلياً للقبيلة وبهذا استطاعت تفسير الدين وتطويعه لمشروعها وخاصة بعد انتصارها الحاسم علـى المـشروع الإسلامي باستلام معاوية قيادة المشروع الإسلامي وتحويله إلى القبلية العـصبية والتوريـث "كنظام سياسي إقصائي "لا تشاركي" الذي بموجبه تم إقصاء المشاركة الفاعلة للقبائل الأخرى مما أدى إلى ممانعتها له، من جهة وإقصائي من حيث انه أسس إلى قراءة تأويلية للدين تحتكر الحقيقة الدينية وتسخرها بما يتلاءم ومشروعه السياسي، الذي أقامه باسم الإسلام،قراءة تسوغ للفكر التكفيري للخصوم الفكريين والذي أصبح نظاما سياسيا متوارثا بكل ما يحمله في طياته من مشكلات. حيث أنتج ذلك نظاما سياسيا، استبدل التعاقد بموجبه من تعاقد اجتماعي مـستمد من القيم والمقاصد للدين الإسلامي، إلى تعاقد ديني بين الفرد والخالق يـشرف علـى تنفيـذه الخليفة والحرس الديني. الأمر الذي أدى إلى تفريغ الدين من مضمونه ألقيمي وتحييـده مـن الفعل الاجتماعي، واختزاله بجانب العبادات.

**ينبغي الإشارة إلى أنني استخدمت مصطلح العائلة للدلالة على النظام المبني على القرابة، بمستوياته المختلفة العائلة الصغيرة وحتى القبيلة.